

ولم يفت وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة المغربية ان تشارك مشاركة فعالة في احياء هذه الذكرى وابرار معالمها الوضاعة في طابع مقدس ، فاشرفت على ندوات علمية خاصة نوقشت فيها اوضاع العالم الاسلامي الحاضرة ومكانة الدراسات الاسلامية في مختلف الجامعات ومراكز الاستشراق ، كما تشكلت لجان علمية لاعادة تنظيم مناهج التعليم الديني والقرآني في المدارس والمعاهد ووضع معاجم قرآنية واعداد موسوعة عن علوم القرآن وتطور لغة القرآن معززة بدراسات موازية لمصادر السنة وشروح موثقة لتطورات العصر على ضوء هدى القرآن ، وكان **جامع الازهر الشريف** بالقاهرة كنظيره **جامع القرويين** بفاس و**جامع الزيتونة** بتونس مسرحا لاشعاعات ربطت الحاضر بالماضي وانارت سبل الهدى مستنيرة بهدي القرآن .

والشؤون الاسلامية المغربية بدعوة ثلة من علماء الشريعة واقطاب الفكر من الخليج الى المحيط لالتقاء محاضرات والاسهام في ندوات وتجمعات ترصد وحدة الفكر الاسلامي وتستخلص دروس نهضتنا الجديدة من دستور القرآن وانبثقت بوادر اخرى عن سمو **امير دولة الكويت ووزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية الكويتية** التي قررت احياء التراث الاسلامي ونشر كل ما يتعلق بعلوم القرآن مما تحويه خزائن العالم من مخطوطات نادرة ، وحفلت الصحافة والاذاعة والتلفزة بالبحوث والدراسات الاسلامية كللت في المغرب (**بالمصحف الحسني**) الذي كان تحفة فنية رائمة وزعت على مختلف الهيئات الدينية والجامعات والكليات والجوامع في الشرق والغرب كعنوان للرباط الوثيق الذي يصل المسلمين في جميع انحاء العالم .



عبقريّة الفكر العزبيّ وسُمُوّه يحدّوا إلى خطّ نهج عبديّ في تدوين تاريخ الأدب العزبيّ

لدّكتور بهجة الأثريّ

عضو المجمع العلمي العربيّ - بغداد

واتسعت معارفهم ، أن يستجدوا الطريف المتع
الخصب من مذاهب النقد وطرائق الموازنة ، فيلونا
بها التاليف بالأوان جديدة . تكسبه القوة ، وتخلع
عليه غلائل الجدة ومطارف الحسن والرواء .

وهكذا كان تدوينهم نتاج الافكار والمعقول
والضمان ، تدوينا طبيعيا حرا ، طليقا من القيود
الثقال ، تسجيلا ووصفا واحصاء ونقدا وموازنة، لم
يخرجوا به في معظم احواله عن الفطرة والطبع ، ولم
يفلسفه ، ولم يربطوا تاريخه بالاحداث ، وانما تركوا
لمن شاء أن يفهم مما يقع له من آثاره ما يشاء ، وأن
يستنبط منها ما يستطيعه بالقدر الذي يسمو اليه
ادراكه ، أو تحاوله ارادته ، فيقف عندما استنبط
راضيا به أو ساخطا عليه ، أو يتجاوزه فيستزيد منه
ويسعى وراءه في الافاق القاصية من محيطاته وعبيه
العميقة أبلغ العمق ، والواسعة سعة ينقلب عنها
البصر خاسئا وهو حسير . ذلك بأن امتداد تاريخهم
واختلاف تقلباته ، وانبساط رقعة الاوطان التي
انتشروا على أديمها ما بين المشرق والمغرب ، وقد
تنوعت طبائنها وأمزجتها ، وتباينت فيها وجوه
المؤثرات ، ثم كثرة ما أنتجوا في الحقب الطوال من
ولائد الافكار ، وتعدد صورته ، وتنوع الوانه : كل هذا
وغير هذا ، لم ياذن بتدوين ادبهم على غير هذا المنحى
الذي ذكرت . وهو اذا اذن به استدعى طاقات قوية
قوة خارقة : تعين على تقصي آثاره ، واستحضار

لما بدا (العرب) التدوين في القرن الاول للهجرة ،
جروا فيما دونوا من شيء مع الفطرة بعديين من
التكلف والتعمل والتعقيد ، وعنوا في كتابة ادبهم
بائيات الرواية - وهي مصدره الاول الاصيل - في
امانة بالغة .. تزمتم فيها تزمنا شديدا ، التزاما
للصدق ، وتقديرا لما في اعناقهم من هذه الامانة وما
يجب عليهم من اداؤها سالمة الى الاجيال .

ذلك شأن تفردوا به بين الامم قاطبة ، ولم يرو
لنا التاريخ ضربيا لهم فيه .

وتحت سلطان هذه النزعة الامينة الصادقة
المتشبة ، على نفوسهم واقلامهم ، حرروا نصوص
الروايات والاثار ، معارضة وضبطا وتفسيرا ؛ ثم
حفلوا باخبار من صدرت عنهم هذه النصوص والاثار،
من شعراء وادباء ، فدونها في ايجاز تارة واطناب
تارة ، ونقصوا السير ، واحصوا ما أنتج في كل فن
من فنون الادب وكل لون من ألوان الثقافات ..
سالكين في ذلك مسالك مختلفة وان تقاربت في
الغايات ، على ما هو مشاهد محس فيما خلفوا من
تراث زاخر عظيم على توالي العصور ، وما برح الخلف
يتابع السلف على نهجه ، والجيل يقفو اثر الجيل ،
ويتوفر على تدوين الآثار القيمة مما يجد من ادب
وعلم ، في أزمانه واقليمه ، ما دنا منها وما بعد ، على
قدر ما يتسع له الذرع ، ويتوافر من مادة التاليف ؛
وما فاتهم حين استبحروا في الحضارة والعمران ،

مضامين هذه الآثار ، وما اختلف منها وما تشابهه ، وتنسق ذلك كله تنسيقا علميا ، وتدرسه دراسة جماعية ، متأملة مستأنية ، نقاشا وتحقيقا يخلصان بها الى نتائج تصدق على هذا الادب في جملته وتفصيله ؛ ولم يتوافر شيء من هذا ، ولا احسبه سيتوافر بعد زمن طويل ايضا ، فليس حدوث مثله بالطلب السهل اليسور . وهذا باب واسع يتعد منه الى آفاق بعيدة ، وليس يعني من هنا غير اللوحة الدالة بما يقال فيه .

ولما كان هذا العصر الحديث ، وحدث الاتصال فيه بأوربة ، وجدت آداب الفرنجة مدونة ومؤرخة بأسلوب مغاير لهذا الاسلوب العربي . وهو في جملته منطبق بنطاق التاريخ السياسي عندهم ، وموصول به ، ومقسوم الى عصور متميزة ، جعلت لكل عصر منها معالم من الاحداث الكبرى تفصل بينها ، ووصل فيها اتق الفكر واتجاهه بافق السياسة والاجتماع والاقتصاد ، قصدا الى تبين المؤثرات في الآثار ، وتعرف الظلال والالوان التي تتخالف فيها من عصر الى عصر تبعا لذلك .

ولقد ذهب بريق هذا المذهب في تدوين تاريخ الادب بأبصار كتاب العرب المحدثين منذ اول الاتصال بأوربا ، وفرنسا خاصة ، كما يكون الشأن عادة عند الالتقاء بشيء جديد ، فبادروا الى اصطناعه قبل ان يفحصوه ، ويتعمقوا في درسه ، ويلاحظوا الفرق بين طبيعة ادب أمة وأخرى ، ويتدبروا القياس كما ينبغي أن يكون التدبر لقانون ما يراد تطبيقه ، وجروا وراءه سراعا مهطعين ، ينقلون أقلامهم على آثار ما رسمه الاوربيون ، فيما حاكوهم به من كتابة موجزات في تاريخ الادب العربي ، غالبا تعليمي ، أو مفصلات غلبت عليها طبيعة الفهرسة وقلت حظوظها من التقصي والفوص الى الاعماق ، ولم يكتبوا فيه في حقيقة الامر - الا بقدر ما يحسو العصفور بمنقاره من ثقب من البحر المحيط . وقسموا الادب العربي فيما كتبوا من ذلك وفاقا لهذه الطريقة الاوربية الى عصور تاريخية ؛ اخضعوا جملة انتاج العقل العربي فيها لعوامل السياسة خاصة ، ظانين - وظننت ظنهم في مطلع الشباب - ان هذا المذهب يصلح أن يكون في جملته وتفصيله مذهبا عاما ، ويحسن تطبيقه على الادب العربي وتدوين تاريخه كما يدون التاريخ العام ، تدوينا يجسد أطواره من عصر الى عصر ، ويعطي من الاحكام الجامعة والنتائج المرضية معطيات قيمة تطابق الحقيقة والواقع من امره !

ولا ريب عندي في أن هذا المذهب في حد نفسه - بقطع النظر عن امكان الانتفاع بتطبيقه في كتابة تاريخنا الادبي ، بأبعاده وأغواره وأزمانه - هو مذهب موفور الحظ من مسحة التفكير والتنظيم ، وعليه طابع الاصاله المنهجية التي تحدثت في البحث اشياء من جمال التبويب والتنسيق ، وتجمع النظائر والاشباه ، وتوضح الاقدار المشتركة بينها توضيحا ما ، لا شك في غنائه وجيواه عند ارادة إدراك علاقة الآثار بالمؤثرات ، فيما يمكن حصره والسيطرة على أبعاده من شيء ، وحين تتسنى الاحاطة التامة بوسائله ، وتيسر القدرة التي تستطيع الفوص والاستنباط والخلق .

ثم هو مذهب توائم طبيعته طبيعة الآداب الاوربية عامة ، بوحداثها المتعددة والصغيرة ، وانفصال كل وحدة منها عن الاخرى انفصالا سياسيا وتاريخيا ، وانفصالا لغويا وأديبا من حيث استقلال كل منها بلغتها الخاصة ، وادبها الخاص ضمن حدودها الضيقة ، ونحو ذلك من اشياء سهل معها تشخيص السمات وتبين المعيزات .

ولكن هل كان الادب العربي في مناشئه وطبيعته كذلك ؟ ومتى ؟ واني ؟ فنخضع تدوين تاريخه العام لهذا المذهب على هذا النحو بحيث تبلغ به النتائج الصحيحة التي تصدق عليه ؟ جواب هذا التساؤل عندي ، ولست أتعجل به من غير تدبر : « لا » مشحونة بكل دلالة نفية القاطع ، متمثلا في حرفها المستعملين الشامخين !

فلا ريب أن الادب العربي يتميز بخاصيتين عظيمتين ، باين بهما آداب هذه الوحدات الاوربية وغيرها ايضا ، فامتنع بهذه المايئة - فيما أرى - اخضاعه اخضاعا تاما لما اخضعت له من قانون دونت به تواريخها الادبية العامة .

اما احدهما ، فتلك هي ما انبسط لهذا الادب من اوطان ترامت ما بين بلاد الفال في الغرب وتخوم الصين في الشرق ، وبين حواشي البسفور شمالا واليمن وحضرموت جنوبا ، وما حظي به من مشاركة عبقریات من مختلف الشعوب في بنائه ، وما استوى بذلك لافاقه من ابعاد وأغوار ، وما زخر فيه من آثار متنوعة اذا استطاع الاحصاء لشيء ما ان يحيط بأفراده حصرا ، فلن يبلغ من آثاره مدى يحصرها في حدوده ، ويعطيها صورة عامة صادقة .

واما الاخرى ، فتلك هي طبيعته الخاصة ، ومناشئته ، وبنائمه التي تشق مجاريها الدافقة طرفها فيه الى « لا نهايتها » ، وترفده دائما بما يمنحه استقلال الشخصية وحماية وجودها بالصمود امام الاعاصير ، بل القدرة على التأثير في مجاري أحداث الحياة نفسها ، فيفرض عليها سلطانه كما سنرى فيما يأتي من حديث .

ونحن اذا تدبرنا هذا كله بازاء هذا الاسلوب الاوربي في تدوين تاريخ الادب مقسما الى عصور سياسية .. اتضح لنا صورة الصعوبة في تطبيقه على ادبنا ان لم نقل بتعذر تطبيقه عليه ، وبدت لنا هذه المعالم الفاصلة بين ادب عصر وآخر ، في ضعفها ، اشبه بالحدود والحواجز التي اقامتها دول الاستعمار في الوطن العربي ، واتخذت منها « مناطق نفوذ » لها ، تتحكم في مواردها ومصادرها ومصايرها على نحو ما نشاء . ولكن هذه الحدود والحواجز ، كانت امام مور الامة العربية اضعف من ان تثبت له او تحول دون الاماني القومية ان تتلاقى على هدى من امرها العظيم .

كذلك كان شان هذه التقاسيم السياسية في تحديد طبيعة الادب العربي ، فانها حين فرضت عليه ، عجزت - من هذا المنطلق المقيد - عن الوفاء بتمثيل الصور الصحيحة لابعاده واغواره في مختلف بيئاته وعود تاريخه .

ونحن حين نمضي في ملاحظة الاحداث السياسية والاجتماعية على وجه الزمن كله ، نجدتها تجري ابدا متلاحقة ومتلازمة بالضرورة تلازم اجزاء الزمن الذي تحدث فيه ، كل حادث منها ينشأ وهو منفعل باسباب وعلل تتقدمه متصلة بحادث سابق ، فما يكون في يومنا من حادث جديد ، فلاحداث الامس الدابر اثر في حدوثه ، وله بها اتصال وثيق مباشر ، وان بدا للنظرة القاصرة قائما بنفسه ، وما يكون من أحداث في غد آت انما هو مرتبط بأحداث يومنا كذلك ، وهكذا الشأن كله في أحداث الحياة : تدور في هذه الحلقة المفرغة دوران الافلاك في مساراتها .

ثم نمضي في ملاحظة تولد الافكار ، فنجد الفكر الانساني - اي فكر كان ومتى واين وكيف - لا ينبع من الازدهان ابتداء ، وانما ينبع من افكار تقدمته وولده ، وان خرج أحيانا مبائنا لها في الصورة والشكل ، او بدا منفصلا عنها في النزعة والمعنى والفاية . وهو كما يكون مؤثرا فيما يحدث بعده من

افكار ، يخضع لعوامل شتى سبق زمن وجودها زمن ظهوره ومنها تولد من بعد وتركب في صورة من الصور . وعلى هذا النحو تتلاحق اجزاء السلسلة الزمنية متماسكة ، وتتلاحق كذلك الافكار آخذا بعضها برقاب بعض ، وتتتابع ، ويتولد فكر من فكر ، وتنتقل مؤثرات عصر سابق الى عصر لاحق ، فتظهر اثرها في حياته العامة وفي جملة افكاره وآدابه . على هذا قام قانون الوجود ، واطردت سننه منذ ازله ، وسيطرده على ذلك كذلك الى ابد ، فما ثم من شيء فيه الا يولد من شيء سابق له ، ثم ينمو رويدا حتى يبلغ نضجه في الوقت المقدر له ، فيظهر فيه سويا يحسب الساذج حصاده ابن يومه كما يتوهمه عند ظاهر عيانه ، ولا يكاد يذكر اوائله ومناشئته في زمن سبق ونبت فيه من بذاره .

ثم ، هذه الاحداث السياسية التي تحدث في زمن ما ، انما تحدث آثارها الحقيقية في الحياة عامة ، وفي المعاني الانسانية خاصة ، بله الصور والاشكال ، في اناة وبطء ، فلا يظهر منها ما يظهر الا بعد ريث من الزمن يمضي على لقاحها ، كما يكون من شان المواليده .

وهي - بعد - أحداث متفايرة ، تعتري الحياة ، فتحدث لذلك آثارا متفايرة ، تتشابك فيها المؤثرات ، فيتعذر تبين عناصر كل حدث منها على انفراده ، وتعرف مدى عمله في خلق تلك الآثار .

واذا كان الامر كله كذلك في جملة شأنه ، ولست احسبه يكون غير ذلك ، فلا جرم يكون مؤدى هذه التقاسيم للمصور السياسية - حين نعرضها على الادب العربي - اننا ندخل بها عليه فسادا - واي فساد - ما في ذلك ريب ، اذ نضيف الى عصر لاحق نتاج عصر سابق حمل في نفسه كل عوامله ومؤثراته وخصائصه ، ونحن - الى هذا - لا نملك الوسيلة الى تحليل عناصر كل حدث نتخيل له تأثيرا في الصور والمعاني ، والى تشريحها لادراك عملها في الآثار الادبية ، وتمثيلها في شكل ما من الاشكال ، يصف حكما عاما صحيحا يصدق عليها ولا يفيل ، فنجور بالاول على الاشياء ، ونفتئت على الحقائق ، ولا ينتهي بنا الثاني الى فائدة مستخلصة توضح ما نحاول تبينه من السمات الصحيحة من خلال ركام الاحداث .

واذا نحن وسعنا الافق ، ومددنا ابصارنا الى خط ابعد واعمق ، ونحصنا طبيعة تغليب العوامل السياسية في هذه التقاسيم ، واعطانها صفة السلطان المطلق او شبه المطلق الذي يتحكم في مصاير الاشياء ،